قراءةٌ في كتاب الثقافة والإمبرياليّة لـ (إدوارد سعيد)

م. م: عبد الخالق مرحب[1]

الملخّص

تتأتّى قراءة كلّ كتابٍ في تعيين الأفكار المؤسِّسة له وما يتفرّع عنها من موضوعاتٍ جزئيّة، ثُمَّ تَتبّع الأدلّة عليها، ورصد الغايات النهائيّة منها، وستنحو هذه القراءة هذا الطريق في معاينة كتاب (الثقافة والإمبرياليّة) لإدوارد سعيد، ومطالعة فصوله.

والناظر المُستقرِئ يجد أنّ فصول الكتاب تتحدَّد معالمَها بالأفكار الأساسيّة الآتية؛ الاستشراق السافر، وابتذار الإمبرياليّة منه، وجدلية التشكّل والتأثير بين الثقافة والإمبرياليّة، وكشف الأنساق المُضمَرة في السرد الروائي المُستعمِر، والهُويّة الثقافية وتحدّيات تلقي الإمبرياليّة، وجنايات الاستعمار وتحطيم المِعمار الثقافي على مستوى التشويه التّاريخي، والإبادات الجماعيّة، والهيمنة والسطو الاقتصادي.

وحجاجيّة إدوارد سعيد على أفكاره تلك تتعيّن بنموذج الحِجاج الشواهديّ المتمثّل بالحروب الواقعيّة، والتصريحات السياسيّة للإمبرياليين، والسرد الأدبي الاستعماريّ، وإعلام المُستعمِرين وبعض نظريّاتهم في الفلسفة. أمّا غاياته فأوفرها شأنًا توجيه مشارط الدحض لنماذج من معطيات الثقافة الإمبرياليّة وتفكيك أنساقها الداخليّة، وصولاً إلى إعلان المقاومة الثقافيّة عبر فضاءاتٍ منها الأدب المضادّ، والتعليم التحرّريّ.

الكلمات المفتاحيّة: الاستشراق، الإمبرياليّة، الثقافة، التَغريب، السرد الاستعماري، المواطن الأصلانيّ، التعليم التحرّري، المقاومة الثقافيّة، القراءة الطباقيّة.

---

١. متخصّص في التاريخ المعاصر/ جامعة البصرة / كلية الآداب.

الثقافة والإمبرياليّة جزء واحد

تأليف: إدوارد سعيد

ترجمة: كمال أبو ديب

عدد الصفحات: ٤١١

الناشر: دار الآداب، ط٤، بيروت

تاريخ النشر، ٢٠١٤.

١. من نقد الاستشراق إلى تفكيك الإمبرياليّة

يصرّح إدوارد سعيد أنّ كتاب (الثقافة والإمبرياليّة) في أصلّه مجموعةٌ من الحوارات التي ترشّحت على أفياء كتابه السابق (الاستشراق)، يقول: «بعد حوالي سنواتٍ خمسٍ من صدور الاستشراق عام ١٩٧٨، بدأت بتجميع بعض الأفكار التي كانت قد تجلّت لي، وأنا أنجز ذلك الكتاب حول العلاقة بين الثقافة والامبراطوريّة. وكانت أولى النتائج سلسلة من المحاضرات ألقيتُها في جامعات الولايات المتّحدة وكندا، وانكلترا عامي ١٩٨٥و ١٩٨٦. وتشكّل تلك المحاضرات المنظومة اللبابيّة للكتاب»[١]. والكتابان معًا على مستوى التصوّر جزءان متّصلان من مسارٍ فكري واحد، يكمل منهما السابقَ اللاحقُ.

بيد أنّ الثقافة والإمبرياليّة يؤدّي مهمةَ مَوضَعة المشكلات التي عالجها الاستشراق بشكلٍ أوسع[٢]؛ على مستوى الجغرافيّة والأفكار؛ فإذا تحدّد الاستشراق بالمفاهيم الغربيّة عن الشرقيين فحسب، فإنّه في الثقافة والإمبرياليّة يوسّع المنظومة ليصف نسقًا أكثر شموليةً من العلاقات بين الغرب والمادة (اللاشرق أوسطيّة)، مثل أفريقيا والهند، وبعض مناطق الشرق الأقصى، وأستراليا، وجزر البحر الكاريبيّ[٣].

أمّا على مستوى الموضوعات فيفيض سعيد في عقد أواصل المقاربة؛ فكتاب الاستشراق فاتشَ أهمّ كتابات المستشرقين لكشف ما يُضمَر فيها من أشكالٍ ثقافيّةٍ ذات موقفٍ أساسي يعود

١. ادوارد سعيد، ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٥٦.

٢. انظر: المصدر نفسه: ٩.

٣. انظر: المصدر نفسه: ٥٧.

إلى ارتباط المعرفة بالسلطة واعتماد أحدهما على الآخر، فالسلطة بكلّ أشكالها تُعيّن نوع المعرفة، كما أنّ المعرفة لازمةٌ لقيام السلطة، ويتّخذ سعيد هذا أساسًا للتفريق بين الاستشراق (الكامن)، و(السافر)، فإذا كان الأوّل يمثّل التصوّرات الخفيّة للأوربيين عن الشرق واستلهامه الكامن له في الأعمال الأدبيّة، ومن ثَمّ هو موقفٌ إمبريالي منه، فإنَّ الثّاني: الاستشراق السافر هو تجلّيات تلك التصوّرات في الخطابات السياسية والإعلاميّة والأدبية، وإذا كان الاستشراق الكامن يصفّ الشرق بالعرق المتخلّف ويَسِم أفريقيا بالتوحش، فإنّ الاستشراق السافر ينتحل تبريرات مُظلِّلة لاستعمار هذه الشعوب والهيمنة الثقافيّة عليها والتعدّي الجائر على مواردها[١]. وهذه النتيجة التي انتهى إليها في كتاب الاستشراق تشكّل العمود المؤسِّس لموضوعات كتاب (الثقافة والإمبرياليّة).

والمائز أنّ إدوارد سعيد يوسّع من فكرة الاستشراق الكامن ليتعدّى المستشرقين إلى الأدباء والفلاسفة والإعلاميّين الغربيّين الذين كان لهم تأثيرٌ مباشرٌ في الثقافة الأوربية بُغيةَ استيطان جغرافية الآخرين، وتمييز أعراقهم بدعوى التفوّق عليهم[٢].

ويواصل سعيد استكمال أجوبةً على أسئلةٍ أثارها في كتابه الاستشراق، أو تحديد المقولات المنهجيّة التي وظّفها سابقًا فكان له أن يبلوّرها في الثقافة والإمبرياليّة ويستقلّ بتعينها، ومن بين أبرز هذه المقولات ما يسميّه بالقراءة الطباقيّة، وأولوية الجغرافيا، وتحليل استراتيجيات الإمبرياليّة، والمقاومة ضدّ الإمبرياليّة[٣].

وكما استكمل في كتابه (الثقافة والإمبرياليّة) أفكارًا كانت مُبتَسرة، فإنّه يبوح بذكر موضوعاتٍ مهمّة قد أغفلها سابقًا، وأكثرها أهمّيّة: مقاومة الإمبرياليّة، يقول: «إنَّ ما أغفلتُه في الاستشراق هو: الاستجابة للسيطرة الغربيّة التي تُوّجت بالحركة العظيمة لفكفكة الاستعمار عبر العالم الثالث بأسره. لقد رافق المقاومة المسلّحة في أماكن متباينة قدرٌ عظيمٌ أيضًا من جهود المقاومة الثقافيّة في كلّ مكانٍ تقريبًا»[٤].

---

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١٠٦.

٢. المصدر نفسه: ٩.

٣. المصدر نفسه: ١٠.

٤. المصدر نفسه: ٥٦.

٢. مَدَيات العلاقة بين الثقافة والإمبرياليّة

فضاءات الاصطلاح وإجرائيَّات الاستعمال

يبيّن سعيد المحمولات الدلالية لعددٍ من المصطلحات المَدَاريّة في الكتاب، وهي (الاستعمار، والإمبرياليّة، وما بعد الإمبرياليّة) وكذلك المصطلح القرين لها في عَنوَنَة الكتاب وهو (الثقافة)؛ بنحو عامٍ تعني الإمبرياليّة الممارسة والنظريّة أو وجهات النظر التي يملكها مركزٌ حواضريٌّ مسيطرٌ يحكم بقعةً قصيّةً من الأرض، أمّا الاستعمار فهو الاحتلال العسكري وزرع مستوطناتٍ مسلّحةٍ في بقاعٍ من الأرض[١].

وأكثر ما يستعمل التداول الطمعيّ للغرب هذه المفردة في فكرة امتلاك امبراطورية تخترق جغرافية الشعوب الأخرى، وينبّه سعيد أنَّ صراع الجغرافية هو «صراع حول الأفكار، الأشكال، الصور، المتصوَّرات»[٢].

ولمصطلح إمبريالية ظلال معنى أخرى استهدفها سعيد بالتساؤل والتفكيك وتمثّل الوجهة التي يستهدفها الكتاب: هل كانت الإمبرياليّة اقتصاديةً بالأساس؟ وإلى أيّ آمادٍ امتدت؟ وما كانت أسبابها؟ وهل كانت انتظاميةً؟ وهل لها سلطةٌ وتوسّع؟ وهل انتهت؟ وما مظاهر تأثيرها؟[٣].

ويُجرِي سعيد استعمالَ اصطلاح (ما بعد الإمبرياليّة) للدلالة على موقفٍ ثقافيّ جديدٍ للإمبريالية، تظهر فيه السيطرة الاستعماريّة بتأثيراتٍ جديدةٍ في السياسة والإعلام والثقافة، ويطّرد في استعمال سعيد (بلاغيات الملائمة وسياستها)؛ أيّ الطريقة التي يُعيد بها الاستعمار تشكيل خطاباته التسويغيّة بهدف السيطرة على الشعوب الأصلية[٤].

بالمقابل يقصد سعيد بكلمة (ثقافة) على وجه الخصوص المُنتج الفكري للغرب في مجالات الأدب والسرد والإعلام وما يتخلّل ذلك كلّه من سياسات استعدائيّة ضدّ الشرق؛ لذا فمفهومه للثقافة يتّصل إجرائيًّا بالإمبرياليّة، وهذا هو محور الكتاب، غير أنّه يظهر على اعتبارات:

أولًا: الثقافة أداة للهيمنة: «تمتدّ دراسة الثقافة إلى وسائل الإعلام والثقافة الشعبيّة، والسياسيّات

---

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٨٠

٢. المصدر نفسه: ٨٧.

٣. المصدر نفسه: ٧٦، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٨.

٤. المصدر نفسه: ١١، ٣٣٤.

الصغرى، وهلمّ جرًّا، فإنّ التركيز على أنهاج القوة والهيمنة يصبح أكثر حدّةً ودقّة»[١].

ثانيًا: الثقافة مصدر للهويّة: «إنّ الثقافة بهذا المعنى، مصدرٌ من مصادر الهُويّة وهي مصدرٌ صِدَامي أيضًا، كما نراها في حالات الرجوع إلى الثقافة والتراث»[٢].

ثالثًا: الثقافة عالمٌ متشابك: «إنّ الإمبرياليّة لَمن الضخامة، لكنّها من التفصيل أيضًا، كتجربةٍ ذات أبعاد ثقافيةٍ حاسمة، بحيث ينبغي علينا أن نتحدّثَ عن أقاليم متقاطعة وتواريخ متواشجة مشتركة»[٣].

وكلُّ استعمالات سعيد لمفردة ثقافة تتصل بهذه الاعتبارات الدلاليّة، فتتساوق معها، أو تتفرّع منها، وعليه فمفهومه للثقافة يتحدّد في مسلك قراءته النقديّة للإمبرياليّة.

جدلية التشكّل والتأثير بين الثقافة والإمبرياليّة

يأخذ سعيد على الدراسات العربية إهمالها تفكيك طبيعة العلاقة بين الثقافة والإمبرياليّة أو انشغالها بتطبيقاتٍ فرعيةٍ عن المبدأ الأصل الذي تتوارى فيه مُهمَّات المجريات[٤]؛ هذا ما جعله يصدّر الكتاب بالمعالجة النظريّة للمشكل الآتي: كيف تسهم الإمبرياليّة في تشكيل الثقافة؟ وكذلك ما هي مَدَيات تأثيرها في تكوين ثقافات الشعوب المستعمِرة والمستعمَرة؟[٥].

الإجابة عن هذا السؤال المنهجي (التلقي ـ التأثير) يمثّل الفاعل الذي يحرّك مُؤلّف الثقافة والإمبرياليّة ويرسم حدوده ويضع نهاياته. بادِئ الأمر ينظر سعيد للعلاقة بين الثقافة والإمبرياليّة كتجلٍّ واقعيّ للعلاقة بين المعرفة والسلطة، وصيغة التبادل بينهما هي انعكاسات تخرّج نوع العلاقة بين الثقافة والإمبرياليّة ضمن صيغ متعدّدة؛ فالأدب الأوربي الكلاسيكي مثل أعمال كونراد التي تصوّر إفريقيا بالمكان المظلم على سطح الأرض، وأعمال جين أوستن التي تبرّر الاستيلاء على أرضي الآخرين، ونعت سكّانها الأصليين بالبداءة، أو القصور في إدارة مواردهم، حتى عُدّت المستعمَرات محطّ خيال أدباء السلطات المُستعمِرة. ذلك كلّه ناتجٌ ثقافيّ عن معرفة استعلائيّة

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١١٧.

٢. المصدر نفسه: ٥٩.

٣. المصدر نفسه: ١٢٧.

٤. المصدر نفسه: ١٧٢.

٥. المصدر نفسه: ٧٦.

أنشأها الغرب عن ذاته[١].

والشكل الآخر من تبعات الثقافة في السيطرة على الشعوب قيام عددٍ من الفلاسفة الأوربيين بابتداع مسبّبات للسيطرة على الدول، كرأي هيغل في الشرق وأفريقيا بوصفهما ساكنين واستبداديّين ودونما صلة بالتّاريخ العالمي، ويطرق الخطوات ذاتها ماركس وصديقه إنجلز ـ وقد اعتمدت على آرائهما المعسكرات الاستعمارية ـ اللّذين نسجا نظرياتٍ حول التطيّر والجهل من الشرقيين، وقد غالى إنجلز في ذلك إلى درجة تسويغه الاحتلال الفرنسي للجزائر بأنّ أهلها أعراقٌ تفتقر للثقة والشجاعة [٢، ٣].

هذه أظهر أشكال صلة الثقافة بالإمبرياليّة كما يقرأها الكتاب، أمّا تأثير الإمبرياليّة في تكوين ثقافات الشعوب المستعمَرة والمستعمِرة، فيتناولها سعيد بهيأةٍ مركّبة؛ فقد عزّزت القوى الاستعماريّة مفهوم التفوّق الثقافي للفرد الغربي حتى يكاد الشرقي أن يكون مَأسورًا لإعلاميّة هذا التصوّر، وقد صاحب ذلك الفصل العرقي للثقافات، إلى الإنكليزانيّة والمشرقانية والأفريقانيّة[٤]. ويؤكد سعيد غير ذي مرّه أنّ مَأتى هذا التصّنيف هي عقائديّة المُستعمِر وزعمه الحقانيّة في تملّك الأشياء والتولّي عليها[٥].

وما يبرحُ الخطرُ أشدَّ نفوذًا في تأثيرات الإمبرياليّة على ثقافات المُستعمَرين وبالأخصّ على مستوى اللّغة والتعليم والاقتصاد والسينما؛ ممّا يجعل الهُوية في تحدٍ شائكٍ ومواجهةٍ مستمرة؛ فليس تسيّد اللّغة الانجليزية لأنظمة التعليم العربيّة سببّه خصائص تعود إلى ذات اللّغة، وإنما لأنّها لغة الحاكم المهيمن الإداري[٦]، والحال أنكأ في التعليم الذي تشرّب بمفاهيم التمركّز الغربي وصار يبثّها في قاعات الدراسة، وسابقًا قد فعلت بريطانيا ذلك في أنظمة التعليم الهنديّة إذ صدّرت مناهج يطفح فيها تمييز الأعراق، والتشويه التّاريخي للهند، وفي كلّ مرّة يتعلّل المُستعمِرون بحقّ الوصاية واتّهام الإفريقيّين بالتوحّش والقصوريّة[٧].

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١٥١، ٢٨٤.

٢. انظر تفصيل ذلك: المصدر نفسه: ٢٢٩.

٣. إلى صفّ هؤلاء يمكن ضمّ فوكوياما وكتابه نهاية التّاريخ، الذي افترض أنّ النموذج الغربي هو التطوّر النهائي للتّاريخ، وكذلك هنتنغتون وكتابه صراع الحضارات، إذ يصوّر الغرب حامل قيمٍ عليا تصطرع لتحرير قيمٍ أقل منها، وهو خطابٌ يعيد انتاج استعلاء الخطاب الغربي. انظر: المصدر نفسه: ١٠.

٤. للتفصيل انظر: ١١٩، ١٢٥.

٥. انظر المصدر نفسه: ٤٧، ٨٣، ٨٧.

٦. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٣٦٢.

٧. المصدر نفسه: ١٧٤.

ولم تمتد حيازة الفعل الإمبريالي على شيءٍ كما في الاقتصاد وتأثيره المباشر على ريع التنقّلات التجاريّة، وارتدادات ذلك على ثقافات الشعوب، ويفتّش سعيد خفايا ذلك؛ فالذي يظهر من اعتماد المُحتلّين على ثَروات المُستعمَرات مثل التوابل والسكر والذهب والقطن، لتشكيل رأس مالٍ إمبريالي لسنواتٍ مديدة، أنّها أدواتٌ لتعزيز تراكم السيطرة، وتحوّل ذلك إلى شهادةٍ مُسهبةٍ على تجشّع الامبراطوريات، الذي اتّخذ أخيرًا أشكالاً جديدةً بفعل قوى السوق والمؤسّساتٍ التي نظّمت الاستغلال عبر الشركات والاستثمارات المتطاولة في الشرق وإفريقيا[١].

هذه التفصيلات كلّها يتناولها إدوارد سعيد بأسلوبٍ متشابك، وبطريقةٍ تُباحث جزئيات الأشياء في سياق أحداثها الواقعية، يصرّح قائلاً: «فليست الثقافة ولا الإمبرياليّة خاملتين راكدتين؛ ومن هنا فإنّ الروابط بينهما كتجاربٍ تاريخيّةٍ حيويةٍ متشابكة معقدة ... وأنا معني بهذا لسبّبٍ منهجي رئيسي وهو أنّ الأشكال الثقافية هجينة، مولّدة، مزيجة، مشوبة غير نقية؛ وقد آن الأوان في التحليل الثقافي لإعادة ربط تحليل هذه الأشكال بواقعها الفعلي»[٢]، و أظهر هذه الأشكال الثقافية تناولاً عنده هي الأدب، والإعلام، والموسيقى، والاقتصاد، والتعليم.

٣. نُظُم الاستعمار في السرديّات الأدبيّة: مجابهة نقديّة

نقد السرد الاستعماري من الأهميّة إلى الغائيّة

تشغل فكرة أثر الإمبرياليّة في صناعة السرديّات الأدبيّة وما تتضمّنه هذه المَسارِد من وجهات استعمارية، مساحاتٍ واسعةً وفصولاً عديدةً من كتاب الثقافة والإمبرياليّة، حتى أنّه يعقد أكثر من فصل لرواية، كما في رواية (ما نسفيلد بارك لجين أوستن)[٣]، أو يكرر روايةً واحدةً في سياقاتٍ وظّيفيّةٍ مختلفةٍ كما في (قلب الظلام لجوزيف كونراد)[٤]، وإنّ سعيدًا لَيعدّ الاهتمام بالسرد الأساس المَقروء لديه، يقول: « إنّ نقطتي الأساسيّة هي أنّ القصص تكمن في اللباب ممّا يقوله المكتشفون والروائيون عن الأقاليم الغريبة في العالم، كما أنّ القصص تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المُستعمَرة لتأكيد هويّتها الخاصّة ووجود تاريخها الخاصّ»[٥]، فانطباعات المُستعمِرين في الآن

١. المصدر نفسه: ٨١.

٢. المصدر نفسه: ٨٥.

٣. جعل لها سعيد فصلين؛ السرد الروائي والفضاء الاجتماعي: ١٣١، جين أوستن والامبراطوريّة: ١٤٨.

٤. انظر: المصدر نفسه: ٩٣، ١٣٧.

٥. المصدر نفسه: ١٧.

الذي تكون فيه مفرّغة في القصّ الأدبي؛ فهي تحمل تجلّياتهم الذاتيّة الواعية عن الأرض.

ويوّفر السرد مساحاتٍ خطيرةً للاشتغال على «مسألة من يملك الأرض؟ ويملك حق استيطانها، والعمل عليها؟ ومن ضَمنَ استمرارها، وبقائها؟ ومن استعادها؟ ومن يرسم الآن مستقبلها؟ فإنّ هذه القضايا قد انعكست ودار حولها الجدل، بل حُسمت لزمنٍ ما في السرد الروائي»[١]

ويعني ذلك أنّ الروايات السرديّة ليست حكايات في ذاتها، بل هي تشكيل عالمٍ متخيّلٍ تحاك ضمنه صور الذات عن الماضي، وتمتزج فيها الأهواء بالحقائق، حتى تكتسب فيها الافتراضات طبيعة البديهيات، وتتلوّن العقائد فيصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بتجلياته، ويأخذ سعيد بمهمة تفكيك هذه الأسس التي تتحكّم بإنتاج وتلقي السرديات الاستعماريّة[٢].

وتحقيق ذلك هو الغاية التي يرومها سعيد من كتابه، فالسارد الغربي على تواطِئ مع التسلّط الإمبرياليّ، فالعديد من الأعمال الأدبية «ليست مجرد انعكاسٍ للإمبرياليّة بل في كثيرٍ من الأحيان جزء من استراتيجياتها الثقافية»[٣]. ويبرع سعيد في كشف واحدةٍ من الصور المضمرة للمسرَد الروائي الغربي؛ ومؤدّها دأبُ المستعمِرين على تشكيل انطباعاتٍ متحيّزةٍ عن الشرق من أجل صنع شرعيةٍ موهمةٍ لاستعماره، كتخريج شخصيّة الفرد الشرقي بالعرق الأدنى، واللازم الأخلاقي للغربي استعماره وتوجيهه[٤].

ويسمّي سعيد مثل ذلك بالمفارقات اللاذعة للمُستعمِر؛ إذ أيّ أخلاقٍ تلك التي تُجيز استيطان الأرض واستلاب الحقوق وتهجير السكّان الأصليين![٥]. وتعدّ تصريحاتُ الداعية الفرنسي جول هارمان شاهدًا على ذلك، إذ يجأّر بقوله: «إنّنا ننتمي إلى العرق والحضارة المتفوقين ... إنّ المشروعية الأساسيّة للفتح والغلبة على الشعوب الأصلانيّة تكمن في الإيمان بتفوقيتنا، لا الآلية والاقتصادية والعسكرية، بل الأخلاقية أيضًا، وهي ما يتبطّن حقنا في أن نوجّه بقيّة البشر ونقودهم»[٦].

١. المصدر نفسه: ١٧.

٢. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٢٦.

٣. المصدر نفسه: ١٢٠.

٤. المصدر نفسه: ١٠٢، ١٧٢.

٥. المصدر نفسه: ٨٩.

٦. المصدر نفسه: ٨٧.

النماذج السرديّة للمُستعمِرين: مُناقَدة الأنساق المُضمَرة

لم يغادر سعيد المنهج الذي ارتسمه لنفسه في مقدمة كتاب (الثقافة والإمبرياليّة)، فقد أبان المادّة الأدبيّة التي يتعامل معها، وهي الكتابات الأوربيّة في استعمارها لأفريقيا والهند، وبعض مناطق الشرق الأقصى، وأوستراليا والجزر الكاريبية[١]، ويتراءى هذا في تضاعيف الكتاب. أمّا أبرز الأعمال التي سائل مضامينها وكشف عن مَخفِياتها فهي:[٢]

الرواية	المُؤلِّف	بلد المُؤلِّف المُستعمِر	البلد المُستعمَر
أ. قلب الظلام	جوزيف كونراد	بلجيكيا	الكونغو ـ أفريقيا
ب. مانسفيلد بارك	جين أوستن	بريطانيا	أنتيغوا ـ الكاريبية
ج. كيـــــــم	روديارد كبلنغ	بريطانيا	الهند
د. الطاعون	ألبير كامو	فرنسا	الجزائر
ه. تشارلز دينكز	توقعات عظيمة	بريطانيا	أستراليا
و. مَغناة عايدة	جوزيبي فيردي	فرنسا	مصر

أ. قلب الظلام والمفارقة الأخلاقيّة للاستعمار

يكشف سعيد عن رؤيتين يُجليهما المستعمِر عبر دراسته لمضمرات الإطار السردي لهذه الرواية. ومجملها روايةٌ لبحّارٍ بريطانيّ (تشارلز مانو) يقصّ رحلته إلى الكونغو ـ إفريقيا؛ بحثًا عن التاجر الأوربي المتمدّن (كورتز)، وبعد وصوله يشهد دمار أفريقيا والاستغلال الوحشي لهم، ويلحظ أنّ التاجر قد أصبح طاغيةً، يُبيد الأبرياء، ويستولي على أملاكهم. وقد يظهر على الرواية عرضها لغايات المُستعمرين التخريبيّة لكنّها في الآن نفسه تمثّل الأوربيّ بالمتحضّر وأرض أفريقيا

١. المصدر نفسه: ٥٧.

٢. للتفصيل انظر: ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة :٦١، ٩٨، ٢٠١، ٢٣٠.

بالقلب المُظلم[١]، ويرى سعيد أنّ هذه هي أزمة المشروع الإمبريالي؛ يفتعل خطاباتٍ أخلاقيّةً مُفارِقةً تسعى لـ «سيادة الأوروبيين البيض على الأفارقة السود وعاجهم، والحضارة على القارة البدائيّة المظلمة»[٢].

وتَرمز الرواية إلى صورة الفرد الأفريقيّ بوصفه (شيئًا)، لا إنسانًا يملك الحقّ في الرأي والعيش، فالمُستعمِر هو الذي يُجزِّئ الحدود ويستملك مخزون المناجم وثروة المعادن، حتى يغدو مالكُ الأرض أجيرًا فيها، ويصبح الغريبُ عنها متملّكًا لها![٣].

ب. رواية (مانسفيلد بارك) والاستيطان الاستعماري

يُجمل الإطار السرديّ للرواية حول فتاةٍ فقيرةٍ تسكن في قرية (روضة مانسفيلد) التي يملكها قريبها الثري السير توماس وأسرته، وتشب الفتاة في ظلال هذه الأسرة المُتخمة، التي احتازت على أملاكٍ عريضةٍ في مُستعمَرةٍ أنتيغوا، وهي جزيرةٌ على البحر الكاريبي استطالها البريطانيون عام ١٦٣٢، وتتوالى مجريات أحداث الصراع بين الفتاة وأسرة السير توماس.

وما يهمّ سعيد منها أنَّ الرواية تؤرّخ لاستيلاء الأُسر الغنيّة على أراضٍ مُستعمَرة، وما كان لبريطانيا الحالية أن تنمو لولا ذلك[٤]، يقول إنّ الرواية: «تفتح باطراد، وإن يكن بطريقةٍ غير ناتئة، مدى واسعًا عريضًا من الثقافة الإمبرياليّة الداخلية التي ما كان اكتساب بريطانيا اللاحق للأراضي سيكون ممكنًا من دونها»[٥].

---

١. انتهج سعيد في نقد الأدب الاستعماري ما يطلق عليه بـ (القراءة الطباقـيّة) ويريد بها: قراءة السرديات الإمبرياليّة بأسلوب تفكيكي يكشف عن المستويات المتعدّدة المتشابكة غير الماثلة لأوّل وهلة، خاصّة ما هو مقموع ومهمّش أو ما يتقصّد الاستعمار احتجابه لأغراض ترتهن بالهيمنة. انظر: المصدر نفسه: ٢١.

٢. المصدر نفسه: ٩٩.

٣. للتفصيل انظر: ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٩٦، ٩٨ ـ ١٠٠

٤. المصدر نفسه: ١٦٠ وما بعدها.

٥. المصدر نفسه: ١٦٢.

ج. رواية كيم والعبث بثقافة المُستعمَرين

تدور مُجمل أحداث الرواية حول شخصيّة الشاب (كيم)، وهو من أصلٍ إيرلندي نشَأ في الهند، واكتسب ثقافتها، ورافق فيها أحد الرهبان البوذيين، وسرعان ما يكتشف أرومته الحقيقية، وبعدها يلتحق بالاستخبارات البريطانية ضمن اللعبة العظيمة، وهي الصراع بين بريطانيا وروسيا وآسيا الوسطى، وينتهي كيم موظفًا مفرّغًا للخدمة البريطانيّة في الهند[1].

ما يشغل سعيد في الرواية هو فضح العَالم الروائي المُتخيّل للمُستعمِرين، وإبراز الكوامن التي يخفيها؛ فالتغيّر في شخصية كيم ما هو إلّا « وظيفة أدائيّة من وظائف كونه صاحبًا، سيّدًا، في الهند المُستعمَرة»[2]. كما أنّ تعلّمه للثقافة الهنديّة وتأثيره عليها فيما بعد يصوّر ذلك الصدى الاستعماري على ثقافة الشعوب الأصلية، واختتام الرواية بعودة كيم إلى اللعبة العظيمة يشي بأنّ للإمبريالية ألاعيب تستغل الأعراق والديانات ذريعةً لمطامعها[3].

د. رواية الطاعون وتغييب الاحتلال الفرنسي للجزائر

تتمحوّر أحداث الرواية حول قصّة طاعون يكتسح مدينة وهران في الجزائر فيؤدّي إلى ذعر السكّان وانعزال المدينة عن العالم، وتظهر شخصيّة الطبيب برنار ريو الذي يكافح المرض إلى جنب شخصياتٍ أخرى، وهكذا تترادف مجريات الأحداث؛ من تقبّل الحال إلى مقاومة المرض انتهاءً بانحسار الطاعون وانقضائه[4].

يقدّم سعيد أسئلةً يتبصّر فيها الهيمنة غير المرئيّة للاستعمار؛ فـ «لماذا كانت الجزائر الإطار المشهدي لسردياتٍ كانت وما تزال مرجعيتها الرئيسية فرنسا بشكل عام، وبشكل أشدّ تخصّصًا فرنسا تحت الاحتلال النازي»[5]. وجواب ذلك يُعرِب عن «طبيعة المشروع الفرنسي هناك في

---

١. المصدر نفسه: ٢٠٠.

٢. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٢٠٦.

٣. للتفصيل انظر: ١٩٨.

٤. ٢٣٠ وما بعدها.

٥. المصدر نفسه: ٢٣٥.

الجزائر، وفي الإشارة إليها، وتعزيزها»[١]. وعدّها مُستعمَرة يصمت فيها الراوي عن ذكر الجزائريين ليجعل الفرنسي هو المتحدِّث بكلّ الوقائع.

هـ. رواية توقعات عظيمة والشراهة الاقتصاديّة للمستعمِر

تُدور أحداث الرواية حول شخصيّة بريطانيّة تسمّى (بيب)؛ اليتيم من الطبقة الدنيا، والمعونة التي يقدّمها لسجينٍ هاربٍ يُدعى (أبل ماغويتش) الذي جمع أموالاً في مُستعمَرات العقاب في أستراليا، إذ اتخذ البريطانيون من الأراضي الأستراليّة مكانًا يُنفَى إليه المجرمون كوسيلةٍ للعقاب والعمل، ومهما يكن يقرّر (أبل ماغويتش) تقديم ثروته للفتى اليتم بعد المعونة التي أسداها له، وتمضي تتابعات الأحداث في جدلٍ طبقي حتى يعرف الفتى (بيب) مصدر الأموال الموهوبة له[٢].

كعادة سعيد يُقلّب ترب السطح ليكشف عن الجذور؛ إذ يرى أنّ هناك بِنيةً استعماريّةً خفية، وهذه المرّة اقتصاديّة؛ إذ تشكّل المُستعمَرات واردات ماليّة يستربح منها المستعمِرون بشتى أنواع الطرق وأكثرها استغلالاً، ومنها تشغيل السجناء أو إعمال السكّان الأصليين[٣].

و. مسرحية عايدة والتصوير الغرائبي للمَشرق

يتلّخص مَسرَد الرواية في أوبرا مأساويةٍ تجري وقائعها بين أميرةٍ أثيوبيّةٍ تقع أسيرةً في قبضة قائدٍ مصري، ويصوّر كاتبها الفرنسيّ جوزيبي فيردي توتّر الأحداث بينهما معقودةً على احتدام الحبّ والصراع، وقد عُرِضت هذه المَغناة في المسرح إبّان الاحتلال الفرنسي لمصر وقت عهد الخديوي إسماعيل[٤].

وما يجعل سعيدًا يهتم بهذه المَغناة هو تفاصيل تصويرها الاستعلائي للشرق، وبثّ ذلك إعلاميًّا في أوربا أولاً والشرق ثانيًا، وما يجعلها مدارها حول السيطرة الإمبرياليّة؛ أنّها تؤدّي خدمات للثقافة الأوربيّة؛ إذ تأكّد غرائبيّة المشرق في الملبس والمأكل والحِرف والعادات، وكذلك عدّه منطقة صراعٍ واقتتالٍ جغرافي، وبوسع الأوربيّين تصويره والنفوذ إليه[٥].

١. المصدر نفسه: ٢٣٥.

٢. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٦١.

٣. المصدر نفسه: ٣١٣.

٤. المصدر نفسه: ١٧٦.

٥. المصدر نفسه: ١٨٠ وما بعدها.

٤. الهُويّة الثقافيّة وتحديات التَغريب

الأصلاني المُستعمَر والآخر المُستعمِر

تتخرّج طبيعة العلاقة بين ثقافة الشعوب الأصليّة وثقافة المُستعمِرين بكنه العلاقة بين (أنا) و(هم)، ويجترح سعيد مصطلح الأصلاني للتعريف بذاتية الإنسان والأرض المُستعمَرين، مقابل مصطلح الإمبرياليّ الذي يدلّ على المهيمن أو المُستعمِر[١]، وتُستجلى طبيعة العلاقة بينهما عبر أكثر الحقول الدلاليّة ترددًا في الخطاب الاستعماريّ، إذ يصوّر هيمنته بتشكيلاتٍ من مثل (دوني، أعراق تابعة، محكومة، شعوب خاضعة، تبعية، توسّع، سلطة)[٢].

ولا يكشف هذا عن تفلّج وغطرسة المُستعمر فحسب؛ بل يبيّن إلى حدٍّ بعيدٍ المبررات اللاأخلاقيّة التي يتعلّل بها؛ كاتّهام الاحتلال البريطاني للهنود بالتوّحش؛ وبناءً على ذلك رأى أنّهم يستحقون إخضاعهم لسيطرته![٣]، أو اتّهام الاستعمار الفرنسي للأفارقة بالحشرات الهوام، أو الوصف المبتذل للساكن الأصلاني بأنّه كسولٌ؛ ممّا يجعل الأوربي سيّدًا عليه[٤].

وإنّ «هذه المنظومة التي لها طبيعة الأعراض المرضيّة، بل المَلهاتيّة قليلاً، لهي مؤشرٌ لا على شعور منتفخ باقتصارية الانجازات على الغرب وحده، بل وجهة نظرٍ هائلة تكاد تكون شبه هستيريّة في عدائها لبقية العالم»[٥]. بالمقابل فإنّ صاحب الأرض هو الأصلاني الصامت، الذي لا قِبال عسكري أو اقتصادي له أمام القوى المُستلِبة غير أنّ سعيدًا لا يستسهل الهزيمة، بل يضطلع بنوعٍ آخر من المقاومة يدأب على الاختلاف إليها، والاشتغال عليها، وهي المقاومة الثقافيّة، عبر التحرّر التعليمي، والسياسة الاقتصاديّة[٦].

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١٨.

٢. المصدر نفسه: ٨٠.

٣. المصدر نفسه: ٢٠٩.

٤. انظر: المصدر نفسه: ٢٢٨.

٥. المصدر نفسه: ١٠٦.

٦. انظر: المصدر نفسه ٢٩٥

تَغريب الهُويّة التعليميّة للأصلانيين

ينطلق الغربي من أسطورة تفوّقه في الحكم على ثقافات العالم، وإذ ذاك فهويته صُلبة لا تسمح بتقبّل أيّ نوعٍ آخر من الأجناس يبادلها المنفعة أو يشاطرها حقّ السكن على الأرض، وهذا ما يجعل نزعة الغَربَنة مستمرة الحضور ومتعددة التمثّل.

ويؤكّد سعيد أنّ أخطر أشكال الغَربَنة هي اخضاع الأصلاني وإعادة تشكيل ثقافته بما يساعد على حكمه وإدارته[١]، وغالبًا ما يحدث ذلك عن طريق قوى ناعمةٍ موازيةٍ للتسلّط العسكري؛ مثل ترميز المعرفة وتقنينها، ثم تصديرها، بل إنّ من العلوم ما نشأ بعلةٍ استعماريّةٍ، وبقي محتفظًا بنزعتها مثل الجغرافيا وعلم الانثروبولوجيا، وما يتبع ذلك كلّه من البعثات والاستكشاف والمسوحات، وحتى نشوء أوّل الجامعات في لبنان ومصر والهند، فقد كانت في المُبتدأ مواقع استعمارية[٢].

ويستشهد سعيد بأنظمة التعليم الفرنسي في الجزائر التي حضرت تعلّم اللغة العربيّة وأشاعت تعليم التأريخ الفرنسي، وكذلك مناهج التعليم البريطاني في الهند التي تشرّبت أدواتها بموضوعاتٍ عن الأعراق والثقافات غير المتساوية، يتم بثّها في قاعات الدرس بهدف العبث بالذاكرة الثقافيّة للهنود وإعادة تشكيلهم بأيادي بريطانيّة[٣].

ويُبصر سعيد مَلحظًا هامًّا يعُنى بمُناقلة موادّ التعليم الغربي إلى الحواضن الشرقيّة كما هي، ويعدّ ذلك من وسائل التغريب الآسرة؛ فما زالت السيطرة الإمبرياليّة تفعم الثقافات الأخرى بمناهج غير بريئةٍ من اللغة والفلسفة والتاريخ والجغرافيا دون محاولةٍ جادةٍ لإزالتها من عوالقها الإمبرياليّة، ويطلق سعيد على ذلك (النظرية المسافِرة)، وخطورة هذه النظريّات تكمن في تبعيّة تخضع المتلقّين لها لسلطة تزعم تمّلك العلم وبسطه على سياقاتٍ تّاريخيّةٍ وثقافيّةٍ مغايرةٍ في خصوصياتها الطبيعيّة[٤].

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١٩٥.

٢. للتفصيل انظر: المصدر نفسه٢٨١.

٣. المصدر نفسه: ١٧٠ ـ ١٧٥.

٤. المصدر نفسه: ١٧٣، ٣٧٧.

٥. الجنايات الاستعماريّة وتخريب المِعمَار الثقافي

تشويه تاريخ الشعوب

يتحدّث سعيد عمّا يسميه (تشويه التّاريخ)، و(ليّ التّاريخ)، و(إعادة كتابة التّاريخ)[١]، ويقصد به؛ أمرين متّصلين؛ أحدهما: اصطناع روايةٍ مزوّرةٍ عن تّاريخ الأراضي المُستعمَرة بهدف ترتيب الوقائع بما يخدم التوسّع الامبرياليّ، إذ يُعدّ «الجزء الأفضل من التّاريخ الأرضيّ للشعوب المُستعمَرة وظيفة أدائيّة للتدخّل الإمبريالي»[٢]، ونموذج هذا هو الموقف المتطرّف للمستشرق لبرنارد لويس، الذي يرى في نشاط الشرق والإسلام عوداً لإحياء الرق، تعدّد الزوجات، تزويج الأطفال، وقد نافحه سعيد في لقاءاتٍ كثيرةٍ واصفًا أفكاره بالشعور المنتفخ والعداء للعالم[٣]. والآخر: اختراع تراثٍ مُلّفقٍ عن القُوى المُستعمِرة يراد منه بناء سرديّة متعالية، ويظهر ذلك في عديد الممارسات منها؛ اقصاء التاريخ الشرقي القديم، وجعل بداية الحضارة من اليونان، وما ورثه الأوربيون عنهم، مع تغييبٍ متعمّدٍ للأثر الشرقي القديم على اليونان وأوربا معًا[٤]، وتتعدّى هذه الممارسة ذلك نحو خطورة اختلاق المُستعمِرين تاريخ مُتخيّل قومي ـ ديني لليهود يهمّش فيه السكّان الأصليّين[٥].

الاستغلال المزدوج للعقائد والمذاهب

من مكآئد الإمبرياليّة الجانيّة توظّيفها التعاليم الدينيّة الخاصّة بها لتبرير غزو الأرض وإبادة الإنسان، وفي الآن ذاته استغلالها الجائر للبُنى المذهبيّة والثقافيّة للشعوب المُستعمَرة من أجل تفريقها والتسلّط عليها[٦]، ويتشهّد سعيد بنموذجٍ للتوظّيف الإمبريالي لعقائده؛ ما يقوله جنرال إسرائيلي لجنوده: «إنّ الكتب المقدّسة تعلّم هذا النمط من الفعل، وفيها قام يوشع وغيره من القادة العظام بغزواتٍ مخيفةٍ جدًا وباركهم الرب. (وهكذا) يبارك الخراب والدمار الشامل والوحشيّة التي

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٨٦، ١٩٥

٢. المصدر نفسه: ١٠٤.

٣. للتفصيل انظر: المصدر نفسه: ١٠٦.

٤. المصدر نفسه: ٨٦.

٥. المصدر نفسه: ١٨.

٦. المصدر نفسه: ٣٤٠.

لا هوادة فيها، لا لأنّ الربّ شرّعها فحسب، بل لأنّ العرب، بكلماتٍ يرنّ صداها ... لا يفهمون سوى القوة الوحشيّة »[١].

وأمّا استغلال المذاهب لتفريق السكّان الأصليين وإزالتهم عن أرضهم، وتشطيرهم إلى فرقٍ متناحرةٍ، واشعال فتيل النزاعات بينهم، فيرى سعيد أنّ ذلك كلَّه قد صِيغَ تخطيطهُ في مراكز حواضر الاستعمار مثل واشنطن ولندن[٢].

وإلى جنب التوظيف الاستعماري للمذاهب يحصل توظيف الأعراق أيضًا، الذي يراد به فصل الأصليين من السكّان، ثم إعادة تكوينهم بشرًا يتطلّبون حضورًا أوربيًّا، سواء اتّخذ شكل مستنبتةً استعماريةً أم حكمًا إمبرياليًّا سليطًا[٣].

الإبادات الجماعيّة واستلاب الأرض

إنّ للاستعمار عادةً لا يفتأ حراكًا عنها، ولا يحول براحًا منها، وأين ما ظهر كانت تَبِيعةً لطغيانه ولصيقةً بفساده، وهي إبادة السكّان الأصليين للأرض. ويسكّ سعيد مصطلح (البتريّة) مقابلاً واقعيًّا للإبادة، ويريد به: «إذا لم تنل ما تشاؤه أو واجهك ما لا يسرّك، كان بوسعك ببساطه أن تمحوه وتلغيه»[٤]، وما يقوم به المجرم المُستعمِر لا تفي الكلمة في وصف بشاعته، فلقد «عنى ظهور المُستوطِن ...، موت المجتمع الأصيل، وتحجّر الأفراد والحياة، لا يمكن أن تنتفض وتفيض من جديد إلّا من جثة المستوطِن المتفسخة»[٥].

ويتّخذ تبرير الإبادة تعلّات تفصح عن انهيارٍ أخلاقيّ وبيء العاقبة، إذ تُعلن الإمبرياليّة عبر إعلامها أنّ الشعوب الإفريقيّة والشرقيّة في الدرجة الأدنى، وأنّها ناقصة النمو، ويلزم عن ذلك أن تكون غاية الاستعمار انشاء مجتمعٍ جديدٍ في أفضل الشروط التي تعدّه للرفاه والتقدّم![٦].

---

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٢٤٠.

٢. المصدر نفسه: ٢٤.

٣. المصدر نفسه: ٢٢٨.

٤. المصدر نفسه: ٣٥٦.

٥. المصدر نفسه: ٣٢٧.

٦. انظر: ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١٧٢.

وهذه المفارقة الضديّة تظهر في فكرة «الخلاص والإنقاذ الغربي من خلال رسالة الغرب التحضيريّة. ولقد حقّقت الفكرة الإمبرياليّة؛ القائمة على غَربَنة المتخلّفين مقامًا دائمًا على صعيد عالميّ، مؤيَّدَةً بصورةٍ مشتركةٍ من قبل الخبراء في الأفكار (المبشّرين، والمعلّمين، والمستشارين، والباحثين)، وفي الصناعة والاتّصالات الحديثة»[١].

ويسوق سعيد شواهد عديدةً على الإبادات البشريّة التي جناها التوّحش الاستعماري، كما في قتل الفرنسيين لأكثر من مليون مواطن جزائري فضلاً عن المصادرات الهائلة للأراضي، وذات الأمر يرتكبه البريطانيّون مع الهنود، فقد برّروا تقتّيلهم لهم كردّةٍ على انتفاضات السكّان عليهم، وكذلك يريق البريطانيّون دماء الإيرلنديين، وفي الوقت ذاته يعمل الأدب الإنجليزي على تزيين صورة المستعمِرين، ويدعوهم بالفاتحين[٢].

وتفعل الفِعلة ذاتها الولايات المتّحدة إذ يدلل تاريخها على المحو المخطّط له للهنود الأصليين وتحقيرهم على يد الأجناس البيضاء[٣] ولا تسلم من إباداتهم أمريكا الوسطى والجنوبية والشرق الأقصى بين الحرب الفعلية والانقلابات والتخريب المعلن[٤]، ويقدّم الإعلام الأوربي عللّاً زائفةً لذلك ملخّصها « أنّ الولايات المتّحدة تدافع عن مصالحها، وتحافظ على النظام، وتضع العدالة في نصابها السليم في مواجه الظلم»![٥].

الهيمنة الاقتصاديّة والسطو على الموارد الطبيعيّة

يشترك الاستعمار العسكري في صورته المتقدّمة مع الإمبرياليّة الثقافيّة في صورتها المُتأخّرة في النظرة الشارهة إلى موارد الشعوب، وانتهاب مصادرها الطبيعيّة، ويؤكّد سعيد أنّ ما يختلف بين الاستعمار والإمبرياليّة يدقّ في التوسّع الهائل للاقتصاد الامبريالي، فقد جرى تأسيس ممراتٍ

١. المصدر نفسه: ١٩٥.

٢. للتفصيل انظر: المصدر نفسه: ٢٧٨.

٣. المصدر نفسه: ٣٧٠، ٣٧٩.

٤. المصدر نفسه:٣٤٣.

٥. المصدر نفسه: ٣٤٣.

جديدةٍ للتجارة الماوراء بحريّة، تخضع فيه كلّ الصادرات والواردات لمحدّدات السيطرة والنفوذ[١].

والمحرّك لكلّ أشكال التمدّد الاقتصادي هما النفعية الصرف والمصالح التي لا ترى أمام ناظريها إلّا هناءة الذات على حساب استلاب الآخرين، وتشبّ العواطف الأوربيّة بهذه الفكرة إذ ترى فيها وسعًا يفسح البراح لاستهلاك ما يكفيها من الموارد وحكم العالم، وهذه العَقَديّة الصُلبة توّجه سير الخطاب والفعل الإمبرياليّ[٢].

ويتمثّل سعيد بعددٍ من الشواهد دليلاً على ذلك؛ فـ «لم تؤدِّ الحرب العالميّة الأولى إلى تراخي قبضة الغرب على الأقاليم المستعمرة؛ لأنّ الغرب كان بحاجةٍ إلى هذه الأقاليم لإمداد أوروبا باليد العاملة والموارد من أجل حربٍ لم تكن تعني الأفارقة والآسيويين مباشرة»[٣].

إضافةً إلى ذلك؛ فإنّ التوسّع الأمريكي هو بالدرجة الأولى اقتصادي، وقد وِظِّفَت الحروبُ لذلك على مدى جيلين كاملين، فمكثت الولايات المتّحدة في الشرق الأوسط إلى جنب الطغيان والظلم، ولم تساند رسميًا أيٍّ من الصراعات من أجل الديمقراطيّة، أو الحقوق كما تُشهر عن ذلك بل لأجل الانخراط في مبيعاتٍ هائلةٍ للأسلحة، وإشعال المنطقة بالحروب، والأزمات المُربِحة لها[٤].

والجزيرة العربيّة «خضم استهلاكي ما بعده من خضم من السلاح الأميركي، إلى شبكة الانترنت الدولية، إلى القنوات الفضائيّة المحتشدة بأفلام الجنس ... ويصاحب هذا الاستهلاك البضائعي استهلاكٌ لغويّ - ثقافيّ مماثل، وذلك واحدٌ من مصادر الخطر المدلهمة التي تهدد مستقبل العربيّة والثقافة العربيّة الآن»[٥].

---

١. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٢٧٩.

٢. للتفصيل انظر: المصدر نفسه:٢٥٤.

٣. المصدر نفسه: ٢٥٦.

٤. المصدر نفسه: ٣٥٧.

٥. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٣٢.

٦. المقاومة الثقافيّة: تمخّضات الواقع وآفاق المناهضة

المقاومة الثقافيّة: السياق التّاريخي والمحمول الاصطلاحي

لم يبرز حضور المقاومة الثقافيّة في الشعوب المُهيمّن عليها إلّا في وقتٍ متأخرٍ نسبيًا، أيّ ما بعد الحرب العالميّة الثانية، واللافت عليه ظهوره المتزامن كونيًا والمتعدّد بين حلباتٍ محليّةٍ متنوّعة، هذا من جهة[١]، ومن جهةٍ أخرى فقد بزغت المناهضة الثقافيّة إلى جنب المقاومة المُسلّحة في أماكن متباينة تباين الجزائر وإيرلندا وأندونيسيا في القرن التاسع عشر، ومع الفترات الإنكساريّة للسيطرة الإمبرياليّة انبجست مقاوماتٌ استعانت بالثقافة الأصليّة في تحدي الثقافات التوّسعيّة[٢].

وأوّل مظاهر هذه المقاومة جاءت في سياق «تأكيد الهويّة القوميّة، ورافقها - في المجال السياسيّ- تكوين الروابط والأحزاب التي تسعى إلى هدفٍ مشتركٍ هو تقرير المصير، وتحقيق الاستقلال الوطني». وعزّز ذلك ظهور شخصياتٍ أوربيّةٍ من داخل الإمبرياليّة بمعارضةٍ ضديّةٍ للانتهاكات المُستعمِرة منهم مؤرّخون بريطانيّون للهند وإفريقيا المستعمَرتيْن[٣].

بيد أنَّ سعيدًا له وجهته النضاليّة الخاصّة في مجابهة الاستعمار، ففكرة المقاومة ليست مجرد ردّة فعلٍ على الإمبرياليّة، فهي نهجٌ في تصوّر التاريخ البشري يناهض المتصوّرات الإستعماريّة؛ إذ يقوم على تحطيم وتخريب السرديّات الأوروبيّة عن الشرق وإفريقيا، واستبدالها بأسلوبٍ سرديّ جديدٍ أكثر أصالةً أو أشدّ قوةً. واصطلاح (المقاومة الثقافيّة) يدور في فضاءات هذا المجالِ المعني بالجهد الثقافي لإعادة بناء المجتمع المتداعي واستعادة التّاريخ والمكان واللّغة والهُويّة من قبضة الخطاب الاستعماريّ[٤].

ويموّضع سعيد دور الثقافة وأهميّتها في التحرّر من رباق القيد الاستعماريّ؛ إذ إنّها تسبق المقاومة العسكرية، فبدايات المقاومة تنهض من الفكر الثقافي والعَقَدي والاجتماعي، وتنتج عن ذلك المقاومات الخارجيّة، فالثقافة تتقدّم على الفعل العسكري، وتأخذ أدوارًا في توجيهه[٥].

---

١. انظر: المصدر نفسه: ١٢٠.

٢. انظر: المصدر نفسه: ٥٦.

٣. المصدر نفسه: ٥٦، ٢٩٧.

٤. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ٢٠٩، ٢٧٤.

٥. المصدر نفسه:٢٥٩.

أصناف المناهضة ومُمكِنات التأثير

الأدب المضادّ

مثلما ذكر سعيد الأدب الروائي الذي عاين الاستعمار وتماهى مع أهدافه، كذلك ذكر نوعًا من الأدب الشرقي الذي ضادَّ المُستعمِرين، وعمل على تحطيم أمثولة المركزيّة الغربيّة التي تمثّل مبدأ الإمبرياليّة نظرًا، ومنتهى غاياتها عملًا، ويذهب سعيد أنّ هذه الفكرة التفكيكيّة هي المنحى الأجدر بالاقتفاء عند نقد السرديّات الغربيّة التي كوّنها الغرب عن نفسه[١]. وأظهر أمثلته عند الاستقراء[٢]:

الأديب المقاوم	العمل الأدبي	الوجهة النقديّة
سلمان رشدي	أطفال منتصف الليل	التصدّعات الداخليّة للمجتمعات الاستعماريّة
نغوجي واثيونغو	————	نقد الاستعمار الفرنسي لإفريقيا
رابندرنات طاغور	محاضرات القوميّة	مناهضة الاستعمار البريطاني للهند
الطيّب صالح	موسم الهجرة للشمال	تفكيك السرد الفرنسي في استعماره للسودان

يبسط سعيد القول في دراسة رواية (موسم الهجرة للشمال) للأديب السوداني الطيّب صالح الذي حاكَ بمهارة أحداث الرواية بما يُساقط الهياكل الفرنسيّة في غزوها للسودان؛ فإذا كانت رواية قلب الظلام يبدأ محورها من فرنسا إلى إفريقيا، فإنّ رواية موسم الهجرة تعكس ذلك لتبدأ مركزيّتها من السودان؛ وإذا كانت الهُويّة الغربية آنفة في السرد الاستعماري عن السودان، فإنّ الطيب صالح يعمل على تشظيتها، وإظهار مفارقاتها، والناتج أنّه يقاوم الاستعمار من داخل رموزه[٣].

ويشير سعيد إلى الأديب الهندي طاغور وكتاباته التي عُدَّت أناشيد يُتغنَى بها في محاجزة المستعمِر والثأر عليه، ويتوافق مع أهمّ أفكاره التي تدعو إلى اليقظة لممارسات المُستعمِرين المدروسة، وتكذيب مزاعمهم التي تتجاهر بالتحرّر والمسؤولية، وتمارس الهيمنة والاستئصال العرقيّ[٤].

١. المصدر نفسه: ١٨، ٢١.

٢. للتفصيل انظر:٢٩، ٢٧٤، ٢٦٩، ٢٧٣.

٣. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة:٢٤٨، ٢٦٩.

٤. المصدر نفسه: ٢٧٣.

التعليم التحرريّ

لا يفتَأ سعيدٌ مؤكدًا على عدّ التعليم الحرّ نظامًا مُؤثرًا له القدرة على كسر القيود الغربية، وصدّ اندفاعها الثقافي، وما يعنيه من ذلك ألّا يكونَ التعليم بتشكيلاته المؤسّساتية والجامعيّة أسيرًا للثقافة الغربية؛ يقوم بتلقين نظرياتهم دون دراية بكوامنها المُبتنية على مُزايلة الأعراق وحجب ثقافات الآخرين[١].

ولتعليم اللّغة الأصليّة دورٌ في تحرير ثقافة الشعوب، أو إنّ ذلك أولى الخطوات المحرّرة، ففي كلّ مرةٍ يحتلّ المستعمِرون أرضًا يفرضون لغتهم بشكلٍ ما على سكّانها، ولممانعة ذلك ينبغي أن تعزّز اللغة لصالح ثقافة المقاومة[٢].

شخصيّات فكريّة مُقاومة

يتحدّث سعيد عن أعمال فكريّة في سياق ممارستها المقاومة للمحتلّ الاستعماري، ويستجلي عددًا من النماذج التي أدّت أدوارًا فعّالةً في تاريخ المقاومة الثقافي، «كأعمال مفكّرين إيرانيين هامّين ونشيطين هما علي شريعتي وجلال علي أحمد، مهّدا الطريق، بوساطة الخطب والكتب وأشرطة التسجيل، والكتيبات، للثورة الإسلامية تؤول الاستعمار بتأكيد التعارض المطلق بينه وبين الثقافة الأصلانية»[٣].

ويقف المفكّر الأمريكي نعوم تشومسكي إلى جنب الشخصيّات التي قاومت التمدّد الإمريكي على فيتنام، وقد فضح عددًا من التبريرات التي توّسلتها الخارجية الأمريكية من أجل الاحتلال العسكريّ[٤].

ويُقابس سعيد من أفكار تشومسكي ما يستشرف فيه حالة الإمبرياليّة التي تكون عليها فيما بعد، وأشدَّ تلك المُقابَسات افتتانًا للفكر، ما يراه تشومسكي بأنّه «سوف تكون ثمّة حاجة لابتكار أشكال جديدة من السيطرة لتضمن احتفاظ الشرائح ذات الامتيازات في المجتمع الصناعي الغربي

---

١. المصدر نفسه: ٣٧٧.

٢. المصدر نفسه :٣٦١.

٣. ادوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة: ١٠٠.

٤. المصدر نفسه:٢٥٥.

بقدرٍ كبيرٍ من التحكّم بالموارد الكونيّة، الإنسانيّة والماديّة، وأن تفيد فائدةً لا تتناسب مع حجمها من هذا التحكّم»[١].

١. المصدر نفسه: ٣٤٠.